

بناء الفكر الإنساني وأثره في تطوير الذات والسلوك في ضوء التفاسير المعاصرة (تفسير الميزان نموذجاً)

زينب مصارع محمد السويلم^١

الملخص

تعالج هذه الدراسة إشكالية معرفية ومنهجية تتمثل في غياب إطار شامل يوضح كيفية بناء الفكر الإنساني بناءً متكاملًا يوازن بين العوامل الداخلية والخارجية، ويعزز القدرة على التمييز بين الحق والباطل، ويوجه السلوك نحو الاستقامة، وذلك في ظل التحديات الفكرية والاجتماعية المعاصرة التي تشمل انتشار الأفكار المنحرفة والثقافات المادية والسلوكيات السلبية. وتتمثل الإشكالية الرئيسة في السؤال: كيف يُبنى فكر الإنسان، وما أثره في تطوير الذات واستقامة السلوك في ضوء التفاسير المعاصرة، مع التركيز على تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي كنموذج تحليلي؟

اعتمد البحث منهجاً استقرائياً تحليلياً يجمع بين تفسير النصوص القرآنية وفق منهج الميزان والربط بالواقع الإنساني والنفسي والاجتماعي، مستنداً إلى آليات منهجية تتضمن التهيئة الفطرية، والإمداد الوحياني، والتفعيل العملي للتفكير والتدبر والتزكية الأخلاقية. وقد تم تحليل النصوص القرآنية ذات الصلة بموضوعات الفكر والعقل والذات والسلوك، واستقراء آراء العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، مع مقارنتها ببعض التفاسير المعاصرة الأخرى.

يُظهر البحث أن بناء الفكر الإنساني عملية وجودية متكاملة تهدف إلى تنظيم العقل الإنساني وتوجيهه نحو الحقيقة المطلقة، من خلال الربط بين الفطرة الإنسانية والوحي الإلهي، ويتأثر بتفاعل مستمر بين عوامل داخلية (فطرية، نفسية، عقلية، إرادية) وعوامل خارجية (أسرية، اجتماعية، ثقافية، تعليمية). وقد ثبت أن الفكر المتكامل يساهم في رفع مستوى المعرفة والقدرة العقلية والنفسية والروحية، وأن التدبر في النفس والآفاق والاعتماد على منهج تدريجي يؤدي إلى تنمية الذات بشكل فعال، كما أن الفكر هو المرجع الأساسي للسلوك، وأن بناءه على منهج الميزان يضمن تمييز السلوك الإيجابي من السلبي، ومعالجة الانحرافات الفردية والاجتماعية. وتوصلت الدراسة إلى أن بناء الفكر ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة استراتيجية لتحقيق الاستقامة المعرفية والقيمية والسلوكية، وتمكين الإنسان من أداء رسالته في الأرض، وتحقيق الكمال والسعادة، وحماية المجتمع من الانحراف الفكري والأخلاقي.

الكلمات المفتاحية: بناء الفكر، تطوير الذات، تطوير السلوك، التفاسير المعاصرة، تفسير

الميزان، العلامة الطباطبائي.

المقدمة

يمثل بناء الفكر الإنساني أحد المراكز الأساسية التي يقوم عليها كمال الإنسان ومساره الوجودي، وهو المحرك العميق لكل تطور ذاتي واستقامة سلوكية. فالإنسان في الرؤية القرآنية كائن مكلف قادر على النظر والتعقل، وقد منح العقل ليكون أداة الهداية والتميز، كما قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩)، وقال أيضاً: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: ٤). من هنا، فإن الفكر ليس نشاطاً ثانوياً، بل هو الشرط الجوهري للموعي، ووسيلة بلوغ المقاصد السامية من الخلق.

تبلور إشكالية البحث في غياب إطار منهجي شامل يوضح كيفية بناء فكر متكامل يوازن بين العوامل الداخلية والخارجية، ويعزز القدرة على التمييز بين الحق والباطل، ويوجه السلوك نحو الاستقامة، وهو ما حاولت هذه الدراسة الإجابة عنه من خلال سؤال رئيسي: ما هو بناء فكر الإنسان، وما أثره على تطوير الذات واستقامة السلوك في ضوء التفاسير المعاصرة، مع اعتماد تفسير الميزان نموذجاً؟ ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة فرعية تتعلق بعوامل بناء الفكر، وتأثيره على تطوير الذات، وتأثيره على استقامة السلوك.

١. أهمية البحث

يعدّ موضوع بناء فكر الإنسان وتأثيره على تطوير الذات والسلوك في ضوء التفاسير المعاصرة من الموضوعات ذات الأهمية القصوى في العصر الحاضر، لعدة أسباب جوهرية: أولاً: يُعالج قضية أساسية في حياة الإنسان، وهي بناء الفكر كوسيلة لتحقيق الغاية الخلقية، إذ إنّ الفكر ليس غاية بحد ذاته، بل هو الجناح الذي يُمكن الإنسان من تطوير ذاته وتوجيه سلوكه نحو الكمال. ثانياً: في ظل انتشار الأفكار المنحرفة والثقافات المادية والسلوكيات المنحلة، أصبح بناء فكر سليم ضرورة حتمية لمواجهة هذه التحديات.

ثالثاً: اختيار تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي كنموذج للتفاسير المعاصرة يأتي من مكانته العلمية الرفيعة ومنهجية الفريد الذي يجمع بين تفسير القرآن بالقرآن، والربط بالواقع الإنساني، والتحليل الفلسفي-النفسي العميق. رابعاً: يبرز البحث التفاعل الديناميكي بين العوامل النفسانية (الفطرية والعقلية والبدنية والوراثية) والخارجية (العقدية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية)، مما يجعله إطاراً شاملاً يُعيد للإنسان قدرته على التقية والتكامل.

١-١. أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

١. بيان أنّ بناء الفكر وتأثيره على تطوير الذات والسلوك هو مهارة من مهارات الإنسان للوصول إلى السمو والرفعة، لكونه عملية تهدف إلى توسيع إدراك الفرد واكتسابه قدرات ومهارات جديدة.

٢. بيان أن ما يحدث من تقدّم حضاري وعلمي إنما هو نتاج عملية بناء فكري سليم، ولولا ذلك لانهار المجتمع وسقط في الحضيض.

٣. التعريف بأنّ عملية البناء الفكري تقوم على أساس محاربة الجهل والانحطاط الفكري والسلوكي.

١-٢. منهج البحث

إنّ المنهج المتبع في تحقيق مسائل هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على أساس استقراء الآيات الخاصة بالفكر والعقل، وكذلك استقراء الآيات المرتبطة بالذات والسلوك، ومن ثم بيان الآراء التفسيرية للعلامة الطباطبائي وعرضها وتحليلها بما يحقق الإجابة عن أسئلة البحث المطروحة.

٢. الإطار النظري والمفاهيم الأساسية

١-٢. تعريف المفاهيم الأساسية

١-١-٢. الفكر لغة واصطلاحاً

الفكر لغة بمعنى إعمال النظر، أو ما يعبر عنه بـ "النظر والرؤية" (الفيروزآبادي، د.ت، ج ٢، ص ٦٩٨). وقال ابن فارس: "فَكَرَ، الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال: تفكّر، إذا ردّد قلبه معتبراً" (ابن فارس، ١٤١١هـ ج ٤، ص ٤٤٦). وقد جاء في المعجم الوسيط "فكر" بمعنى: إعمال العقل في الشيء، وترتيب ما يعلم ليصل به إلى مجهول (أنيس وآخرون، ١٩٧٢، ج ٢، ص ٦٩٨).

وأما الفكر اصطلاحاً، فقد عرفه المظفر بأنه: "إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب" (المظفر، ١٤٢٨هـ ص ٢٤). كما قيل في تعريفه بأنه: "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول" (قلعجي، ١٩٨٨، ص ٣٤٩). وعرفه الغزالي: "الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة" (الغزالي، ١٩٩٦، ج ٤، ص ٤٢٥).

٢-١-٢. بناء الفكر الإنساني

يُعرّف العلامة الطباطبائي بناء الفكر الإنساني بأنه عملية وجودية متكاملة تهدف إلى تنظيم العقل الإنساني وتوجيهه نحو الحقيقة المطلقة، من خلال الربط بين الفطرة الإنسانية والوحي الإلهي. ويُعدّ هذا البناء أساساً لتطوير الذات وتهذيب السلوك. وقد قال الطباطبائي: "إن الفكر الإنساني لا يبنى إلا على أساس الوحي والفطرة معاً، فإن الفطرة هي الأصل الذي يُلقى فيه الوحي، والوحي هو النور الذي يُهدي الفطرة. فإذا انفصل الفكر عن الوحي، صار ظلمات بعضها فوق بعض، وإذا انفصل عن الفطرة، صار هوياً وتخيّلاً" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢، صص ٢٧-٢٨).

ويُقدّم العلامة هنا نموذجاً ثنائي الأبعاد لبناء الفكر: البعد الفطري (الفطرة كربة خصبة تُؤدّ فيها بذرة المعرفة)، والبعد الوحياني (الوحي كنور يُخرج الفطرة من الظلمة إلى الهداية). هذا الربط يُشكّل إطاراً مميّزاً يتجاوز المنهج العقلي المجرد، ويُعيد الفكر إلى أصله الوجودي.

٢-١-٣. آليات بناء الفكر في تفسير الميزان

يُحدّد العلامة الطباطبائي ثلاث آليات رئيسية لبناء الفكر:

أولاً: التفكير في الآيات التكوينية: يعتقد العلامة الطباطبائي أن "التفكير في الآيات الكونية هو الطريق الأول لبناء الفكر، لأنه يُخرج الإنسان من التقليد إلى اليقين، ومن الظن إلى العلم، ومن التشتت إلى الوحدة المعرفية" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج٣، ص ٤٥).

ثانياً: التدبر في الآيات التشريعية: في مجال التدبر في الآيات التشريعية يعتقد العلامة أن "الفكر إذا بُني على توحيد الربوبية، صار عبديّةً، وإذا بُني على الشرك، صار استكباراً. فالفكر هو أصل السلوك، والسلوك هو ظهور الفكر" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج٢، ص ١٢٤).

ثالثاً: التزكية بالآيات الأخلاقية: يُركز العلامة هنا على البعد التهذيبي للفكر، فالتزكية ليست مجرد إزالة سلبية، بل بناء إيجابي يجمع بين التقية النفسية والارتقاء الروحي (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج٣، ص ٢٠٠).

٢-١-٤. العقل لغة واصطلاحاً

يُستخدم مفهوم العقل في اللغة للدلالة على ما يقابل الغفلة ويعاكس الطيش. ويُنظر إليه بوصفه أداة تضبط السلوك وتمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ (ابن منظور، ١٤٠٥هـ ج١١، صص ٤٥٨-٤٦١). وقد أشار ابن فارس إلى أن لفظ العقل يرتبط بمعنى الكبح والمنع، لأنه يصدّ صاحبه عن القول غير الحسن والفعل الذي لا يُحمد (ابن فارس، ١٤١١هـ ج٤، ص ٦٩).

وأما اصطلاحاً، فقد جاء العقل بعدة معانٍ مختلفة باختلاف العلوم. فعند الفلاسفة، يطلق العقل على الموجود المجرد عن المادة بذاته وبفعله، ولذا قال عنه العلامة الطباطبائي في بداية الحكمة: "العقل هو المجرد عن المادة ذاتاً وفعلاً" (الطباطبائي، ١٤١٨هـ ص ٦٩).

٢-١-٥. تطوير الذات لغة واصطلاحاً

"تطوير" من طَوَّر الشيء يُطَوِّرُهُ تطويراً: رفعه درجةً بعد درجة، وأخرجه من القوة إلى الفعل، ومن النقص إلى الكمال (ابن منظور، ١٤٠٥هـ ج٨، صص ٢٣٩-٢٤١). والذات في اللغة تأتي بمعنى الوجه (ابن فارس، ١٤١١هـ ج٦، ص ٨٨)، وقيل بأن ذات الإنسان نفسه، وذات الشيء عينه (أنيس وآخرون، ١٩٧٢، ص ٨٥).

أما تطوير الذات اصطلاحاً، فهو: العملية الإرادية المنهجية المستمرة مدى الحياة، التي يقوم بها الإنسان ليرفع وجوده الإنساني من حالة الفطرة الخام إلى حالة الكمال الممكن. قال العلامة الطباطبائي: "الإنسان إذا لم يُركَّ نفسه بنفسه بقي حيواناً ناطقاً، وإذا زكّاها صار ملكاً روحانياً في صورة بشرية" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج١٨، صص ٣٤٥-٣٤٧).

٢-١-٦. السلوك لغة واصطلاحاً

جاء في المعاجم اللغوية أن مصطلح السلوك مأخوذ من الفعل "سلك" بمعنى اتباع الطريق أو الدخول في مكان ما (ابن منظور، ١٤٠٥هـ ج ١٠، ص ٤٤٢). أما اصطلاحاً، فيشير السلوك إلى أسلوب حياة الفرد وميوله وتوجهاته الفكرية والأخلاقية (أنيس وآخرون، ١٩٧٢، ج ١، ص ٤٤٥).

وعند الطباطبائي يكون معنى السلوك بمعنى الكيفية والطريقة التي سلكها الإنسان، سواء أكان سلوكاً عقلياً أو علمياً، أو سياسياً، أو اجتماعياً، أو عرقياً، ونحو من الطرق التي يسلكها الإنسان بقطع النظر عن إيمانه وكفره إلى تحقيق أهدافه (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٦، ص ١٦٦).

٢-٢. مقارنة منهج العلامة الطباطبائي مع المفسرين المعاصرين

يُقدّم العلامة الطباطبائي نموذجاً متوازناً وشاملاً لبناء الفكر الإنساني يجمع بين العقل (كما عند محمد عبده)، والثورة الفكرية (كما عند السيد قطب)، والقلب والوجدان (كما عند الشعراوي)، مع إضافة البعد الميتافيزيقي العميق المتمثل في الفطرة كأصل وجودي، والوحي كنور هادٍ، والتفكير والتدبر كألية تدريجية فمحمد عبده يركز على العقل كأداة أساسية لفهم الدين وإعادة بناءه، لكنه يُغفل دور الفطرة كأصل وجودي والشهود الروحي الذي يُبرزه الطباطبائي (رضا، ١٣٦٦هـ ج ١، ص ١٢). أما السيد قطب فيركز على الثورة الفكرية والقطيعة مع الجاهلية، ويُهمل التأمل الروحي التدريجي الذي يُميّز منهج الطباطبائي (سيد قطب، ١٤١٢هـ ج ١، ص ٣٣). والشعراوي يُقدّم بعداً عاطفياً-وجدانياً قوياً، لكنه يُقلّل من دور العقل والفطرة كأسس متوازنة (الشعراوي، ١٩٩٧، ج ١، ص ٥٥).

٣. عوامل بناء الفكر الإنساني من منظور العلامة الطباطبائي

يُعدّ بناء الفكر الإنساني، في رؤية العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، عمليةً تفاعليةً ديناميكيةً تتكوّن من منظومةٍ مزدوجةٍ تشمل العوامل الداخلية (النفسانية) والعوامل الخارجية، مع التأكيد على أنّ الفكر ليس مجرد نتاج عقلي مجرد، بل هو ثمرة تفاعل الاستعدادات الفطرية مع المؤثرات البيئية، تحت مظلة الإيمان والتوجيه القرآني.

٣-١. العوامل الداخلية (النفسانية)

٣-١-١. العامل الفطري

يُصنّف العلامة الطباطبائي العامل الفطري ضمن العوامل الداخلية (النفسانية) لأنه استعداد ذاتي أصيل في النفس الإنسانية، لا يُكتسب من الخارج، بل هو مُودّع في الوجود الإنساني منذ الخلق، ويُشكّل النواة الأولى والأساس الروحي لكلّ عمليات الفكر والإدراك.

يُعرّف العلامة الفطرة بأنّها: ميلٌ ذاتي في النفس نحو الكمال والتوحيد، مُودّع في الوجود الإنساني منذ النشأة الأولى، لا يحتاج إلى تعلّم أو اكتساب خارجي (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١٦، ص ٣١٠). وقد أكد القرآن الكريم

على كون العامل الفطري من بين العوامل الذاتية والنفسية في عملية البناء الفكري، إذ قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (الروم: ٣٠).

وقد ذكر الطباطبائي في أحد كتبه بأن الطريقة الصحيحة هي التي تدعو الإنسان في خلقته بحيث يتقيد في أعماله بقبود وقوانين فردية وأخرى اجتماعية تصدر عن فطرته السليمة، بما لا يجعله مكتوف الأيدي لهواه وعواطفه وما تمليه عليه ميولاته وشهواته (الطباطبائي، ٢٠٢٠، ص ١٢). وقال أيضاً: "الدين فطري على الخلقة لا يدفعه الفطرة أبداً لو ظهر لها ظهوراً ما بالصفاء من القلب" (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ١، ص ٣٨٩).

٢-١-٣. العامل النفسي

تعد السلامة النفسية من مقومات بناء فكر الإنسان، إذ تعتمد على تحقق الطمأنينة، لكونها تحقق علاقة الربط بين النفس ومصدرها الحقيقي في الأمن، عن طريق إزالة الخوف والقلق والاضطراب عنها. وقد استفاد العلامة الطباطبائي هذا المعنى في تفسيره لقوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: ٢٨). ويأتي الاطمئنان فيها بمعنى السكون والاستقرار، فالاطمئنان إلى شيء هو السكون إليه (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ١، ص ٣٥٣).

فالصحة النفسية تجعل من الإنسان مقتدرًا على مواجهة الضغوط والمشكلات الحياتية، وفي نفس الوقت يحتاجها الإنسان في عملية البناء الفكري، وما يجعله مقتدرًا في اتخاذ القرارات الصائبة، وإقامة العلاقات الاجتماعية الحسنة.

٣-١-٣. معرفة النفس

إن معرفة النفس من أبرز الطرق إلى تحقق المعرفة بالله تعالى، حتى جاء عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: "أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه". ومن هنا كانت معرفة النفس أحد العوامل الذاتية في عملية البناء الفكري، إذ إن ذلك يتوقف في الحقيقة على مدى قدرة الإنسان على كشف الأسرار الإلهية التي أودعت في مكان من هذا الخلق الإلهي العجيب يرى العلامة الطباطبائي بأن النظر والتدبر والتبصر في النفس في حقيقته يقود إلى بناء الفكر، باعتبارها أقرب السبل لمعرفة الحق تبارك وتعالى، لما ذكره من أن السير الأنفسي أنفع من السير الآفاقي، ولكون المعرفة النفسانية لا تنفك عادة من إصلاح أوصافها وأعمالها بخلاف المعرفة الآفاقية (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ٦، ص ١٧٠).

٤-١-٣. تقوية الإرادة

يعد هذا العامل من العوامل التربوية والفلسفية المهمة في عملية البناء الفكري، لأنها تمثل المحرك الذاتي والداخلي لفكر الإنسان، بحيث تمنحه القدرة والقوة على التوجه باتجاه الحقائق واستثمار القدرات العقلية بأكمل وجوهاها. فتقوية الإرادة تجعل الإنسان قادراً على مواصلة البحث والاستدلال والتحليل والاستنتاج على الرغم من وجود بعض العراقيل والضغوط والعقبات الخارجية.

من الآيات التي جاءت بصدد التأكيد على تقوية الإرادة، قوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات: ٤٠-٤١). فإن نهى النفس عن الهوى يحتاج إلى قوة إرادية قوية تجعلها حارفي مواجهة الأهواء واتباع الحق (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢٠، ص ١٩٢).

٣-١-٥. العامل العقدي

تعد العقيدة التي يؤمن بها الإنسان هي القاعدة التي تستند عليها حركته التكاملية في بلوغ مراتب الكمال الإنساني، ولهذا كانت سلامتها شرطاً في تحقق الهداية والاستقامة على الصراط المستقيم. وقد جاء في تفسير الطباطبائي أن الهداية والاستقامة العقديّة لا تتحقق إلا بعد حصول الاستعداد النفسي والعقلي على أساس الإيمان والبرهنة عليه (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٥، ص ٢٧٠).

وقد ذكر القرآن الكريم عدة طرق تسهم في تحقيق السلامة العقديّة، منها: النظر والتأمل في آيات الله، وإقامة البرهان والحجة البالغة، والتقوى، والجهد والمجاهدة، والاهتداء إلى الحق، والسؤال من أهله.

٣-١-٦. العامل الأخلاقي

يمثل الأخلاق الحميدة شرطاً جوهرياً لبناء فكر الإنسان وتكامله عند العلامة الطباطبائي، إذ يرى أنها الأساس الذي يبنى عليها كمال الإنسان الحقيقي، فالإنسان في نظره لا يبلغ الكمال العقلي إلا إذا ركى نفسه أولاً، أي لا يمكن أن ينتج فكراً سليماً وصحيحاً يمكنه من فهم آيات الذكر الحكيم إلا إذا طهر قلبه من الرذائل الأخلاقية، كالحسد والكبر وحب الدنيا وغيرها (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢، ص ٤٣٥).

وقد أكد القرآن الكريم على حسن الخلق من خلال بيان أهميته ومنزلته الرفيعة عند الله تعالى، إذ جعله محل تكريم وتعظيم نبيه الخاتم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤).

٣-٢. العوامل الخارجية

٣-٢-١. العامل البدني

يحتاج كل فرد من أفراد الإنسان في عملية بنائه الفكري إلى توفر سلامة بدنية، أي سلامة لجميع أعضاء الجسم الموجبة للتوافق والانسجام التام بين الوظائف العضوية المختلفة. وقد ذكر القرشي: "إنّ المؤكد أنّ قوة الفكر وسلامته تابعة لصحة الجسم، فإذا كان مصاباً ومبتلياً بأمراض فتضعف القوى العقلية" (القرشي، ١٣٧٢ش، ج ١، ص ٢١٥).

وقد أوضح الطباطبائي هذا المعنى من خلال نظرة القرآن إلى البدن في كونه أداة لفعل الخير أو الشر، وأن من لوازم التدبير الحفاظ على السلامة البدنية، إذ ذكر في تفسيره لقوله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (النساء: ٢٩) بأنّ المراد من قتل النفس المنهي عنه في الآية يشمل جميع أنواع التسبب والقتل المؤدي إلى هلاك النفس وإزهاق الروح (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٤، ص ٣٢٠).

٣-٢-٢. العامل الوراثي

يُعد العامل الوراثي من بين أهم العوامل التي جاء التأكيد عليها في عملية بناء الفكر وتميمته، إذ تأتي السلامة الوراثية من حيث الأهمية بالنسبة للسلامة البدنية بالدرجة الأولى. وقد سبق الدين الإسلامي علماء التربية والاجتماع والنفس في التأكيد على هذه الأهمية، حتى إن النبي (صلى الله عليه وآله) قد نهى عن التزويج ممن ليست لديها سلامة وراثية جسدية أو نفسية، إلى درجة جعله يصرح بأن الخال أحد الضجعين، إذ قال: "اختاروا لنطفكم فإنّ الخال أحد الضجعين" (الكليني، ١٣٦٣ ش، ج ٥، ص ٣٣٢).

والعلامة الطباطبائي وإن لم يتكلم عن السلامة الوراثية بشكل مباشر، لكنه قد تكلم عنها بصورة غير مباشرة من خلال كلامه عن التربية والفترة وتأثير البيئة والطبع الإنساني، إذ يرى إن الإنسان يولد وهو مفضول على التوحيد، وهذه الفترة تعد طبعاً أولياً له، ويمكن أن يكون متأثراً بالمحيط والبيئة والنسل الذي يتولد عنه (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ١٢، ص ١٩).

٣-٢-٣. العامل الثقافي

المقصود من الثقافة هو كل ما يمتلكه الإنسان من الفنون والمهارات والخبرات المكتسبة من تجارب الحياة بما فيها الأفكار والعلوم والمعارف المختلفة، لما لها من تأثير كبير في صناعة عقل الإنسان وبناء فكره، لأن الثقافة تُسهم في تكوين الرؤية الكونية لديه حول الحياة والكون، وتكوين معتقداته وأفكاره من جهة سلامتها وعدمها (العسالي، دت، ص ٢٣).

ولما كان العلامة الطباطبائي من أبرز رواد الفكر الإسلامي المعاصر، فقد ترك أثراً بارزاً في ميادين الفكر والمعرفة الفلسفية والدينية بما لا يمكن فهم هذا المشروع المعرفي دون النظر إلى العوامل الثقافية التي أسهمت في تشكيله. وقد قال الطباطبائي: "إن الأعمال الصالحة هي التي تحفظ الأخلاق الحسنة، والأخلاق الحسنة هي التي تحفظ المعارف الحقة والعلوم النافعة والأفكار الصحيحة، ولا خير في علم لا عمل معه" (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ٥، ص ٢٦٩).

٣-٢-٤. العامل الاجتماعي

يُعد العامل الاجتماعي في التفسير المعاصرة أداة أساسية لبناء الفكر الإنساني، حيث يركز على ربط القرآن بالواقع الحديث من خلال مناهج تربوية تجمع بين العقل والعلم، مما يساهم في تطوير الذات والسلوك داخل الإطار الاجتماعي كشبكة مترابطة للإصلاح الجماعي والعدالة.

أما في تفسير الميزان، فإن العامل الاجتماعي يمثل الميزان الحقيقي لبناء الفكر الإنساني من خلال التوازن بين العقل والنقل، مما يؤدي إلى تطوير شامل للذات والسلوك داخل المجتمع ككيان متوازن يعكس النظام الكوني. يقول الطباطبائي: "الميزان هنا هو العدل الذي يدبر به الخلق، وهو أداة المعلم لتكوين فكر متزن يجمع بين الأصول الشرعية والعلوم الحديثة" (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ١٩، صص ١٥٢-١٥٨).

وتتفرع عن العامل الاجتماعي عدة مكونات أساسية:

أولاً: العامل الأسري: تعد الأسرة اللبنة الأولى في بناء فكر الإنسان، لأنها تمثل أول مراحل تعليمه وتربيته التي يتلقى منها الطفل، وبواسطتها ترسم في ذهنه أولى سطور الحياة. وقد أشار الطباطبائي إلى ذلك في معرض كلامه لتفسير قوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ بِآثِهِ يَذْنُ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا) (الأعراف: ٥٨)، حيث يبين أن العلم والعمل أمران متعاكسان في التأثير، فالعلم أقوى مؤثر وداع إلى العمل، كما أن العمل الواقع المشهود أقوى معلم يتعلم منه الإنسان (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٣، ص ٣٧٢).

ثانياً: العامل التعليمي: يعتمد بناء الفكر عند الإنسان على نوع التعليم الذي يتلقاه في مراحل حياته، لكونه الأداة الأساسية في تقوية عملية الإدراك والعقل عنده. قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ) (العنكبوت: ٤٣). ويشير الطباطبائي إلى أن أهل التقليد، أي الذين يقتصرون على اتباع ما ورثوه أو ما جرى عليه أسلافهم، غالباً ما يجدون صعوبة في التمييز بين القيم الحقيقية والمزيفة أو بين الحقائق الصحيحة والخاطئة بدون دليل واضح وبرهان عقلائي (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢، ص ٢٣).

٤. أثر بناء الفكر على تطوير الذات

١- ٤. أثره على مستوى التعلم

يتجلى أثر بناء الفكر على تطوير الذات على المستوى العلمي والتعليمي، من خلال جعل العقل المفكر أو ما نعره عنه ببناء الفكر بنية تحتية لتطوير الذات على المستوى العلمي، بجعلها قادرة على اكتشاف الحقائق وفهم قوانين الكون وعالم الوجود. وقد قال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الأعراف: ١٨٥)، فالنظر هنا بمعنى التأمل العقلي الذي ينمي العلم الصحيح.

وقد ذكر الطباطبائي في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ١٩٠) ما يدل على وجود الارتباط بين التأمل في خلق السموات والأرض ودلالة لأصحاب العقول. وقال: "يمكن اختصار المعنى بأن الكون بكل عناصره وظواهره، من سماوات مترامية وفضاءات شاهقة إلى الأرض وما تحويه من عجائب وتحولات، بما في ذلك الليل والنهار، وحركة البحار والفلك، وتساقط الأمطار، وهبوب الرياح، وتشكل الغيوم، كلها مظاهر لا يمكن أن تنشأ من تلقاء نفسها أو تصمد بلا سبب خالق ومنظم" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١، ص ٣٩٦).

2- ٤. أثره على مستوى الذكاء

يعد الذكاء أحد القدرات الذهنية التي يمتلكها بعض الأفراد، وهو ما يتطلب تنمية هذه القدرات الذهنية، لأنه لا يأتي عن فراغ، بل يأتي نتيجة تدريب وعمل جاد ودؤوب لبعض الملكات النفسية والعقلية ترتبط بتطور ذات الإنسان. وإن من يقوم بفعل ذلك هو الفكر الإنساني، إذ يعمل على تقوية تلك الملكات العقلية الكامنة فيه.

وكما يرى الحكماء بما فيهم العلامة الطباطبائي أن للعقل الإنساني مراتب، أولها العقل بالقوة (الهيولاني)، وثانيها العقل بالفعل، وثالثها بالملكة، ورابعها العقل المستفاد (الطباطبائي، ١٤١٧هـ ص ٣٠٩). ولكي يخرج من القوة إلى الفعل بحيث تصبح لديه قدرة على إدراك الجزئيات، فإنه يحتاج إلى تدريبه على عملية التأمل والتفكير، وكلما تمكن من بناء فكره وتدرجه في هذه المراتب كلما انعكس ذلك على ذاته وعمل على تطويرها.

وقد قال الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ): "أي يميزون بين الحق والباطل والحسن والقيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١٨، ص ١٥٦).

3-4. أثره على مستوى التحفيز

ذكرنا بأن الفكر من نظر العلامة الطباطبائي لا يقتصر على كونه مجرد عملية ذهنية فقط، بل هو عامل محرك للنفس والذات وعامل مهم في عملية تطويرهما وتنمية قدرتهما، إذ هو المسؤول عن صياغة الرؤية الكونية الصحيحة لدى الإنسان حول عالم الوجود برمته، من ثم تتحول هذه الرؤية إلى قوة داخلية تحفز الذات والنفس وتدفع بهما نحو الإبداع والابتكار والإنجاز.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢١) أن هذا التأمل في النفس يجعله باباً من أبواب الوعي بالقدرة الإنسانية، وهو يحد ذاته دافع ذاتي محفز للذات الإنسانية للتأمل والتفكير والاستبصار بأسرار النفس ومكوناتها الخفية. وقد أشار الطباطبائي إلى أن السعي في تطوير النفس وفهمها الذاتي أعمق أثراً وأثراً من مجرد الاطلاع على العالم الخارجي، وربما كان ذلك لأن المعرفة الداخلية مرتبطة دائماً بتحسين الصفات وتصحيح الأفعال، على عكس المعرفة الظاهرية التي تقتصر على الظواهر المحيطة (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٦، ص ١٧٠).

4-4. أثره على مستوى القيم الأخلاقية الحميدة

يُعد الإنسان في نظر العلامة الطباطبائي مكوناً من بعدين عقلي وعملي، فبواسطة الأول يمكنه القدرة على الإدراك والتمييز، وبالثاني تكون له القدرة على التطبيق العملي لما يراه الفكر السليم ويستقر عليه. وعندئذ لا يمكن تهذيبه إلا على أساس بناء فكر واعٍ سليم لتلك السلوكيات التي ينبغي تجسيدها على أرض الواقع.

وقد أشار الطباطبائي إلى هذا المعنى من خلال تفسيره لآيات التفكير والتدبر والتعقل والتقوى، إذ يجعل من بناء الفكر طريقاً ووسيلة لبناء منظومة أخلاقية عظيمة، لأن السلوك الأخلاقي لا يمثل عادة أو تقليداً لأدب عرفي اجتماعي، بل هو ثمرة من ثمرات الإدراك العقلي والقناعة الفكرية. قال الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨): "الخشية الحقيقية لله تعالى ترتبط بالعلم الراسخ والفهم العميق، وليس بالسطحية أو العرضية. فالمقصود بـ 'العلماء' هم الذين غاصوا في معرفة الله بأسماؤه وصفاته وأفعاله، حتى رسخ إيمانهم في القلوب، وتلاشت الشكوك والاضطرابات الداخلية" (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١٧، ص ٤٣).

٥-٤. أثره على مستوى الوعي الاجتماعي

إن من بين النظريات السائدة في الفكر البشري، هو أن الإنسان كائن اجتماعي، وقد اختلف في سبب ذلك. وقد اختلف العلامة الطباطبائي عن غيره في تعيين السبب في ذلك، وأرجع إلى حاجته الخارجية، إذ يراه لا يتمكن من العيش لوحده، ولهذا التجأ إلى المجتمع لكي يستخدمه في تأمين وتلبية متطلباته الذاتية والخارجية، فعبر عنه بالإنسان المستخدم، وإلا فهو ليس مدنياً بفطرته وطبعه كما يعتقد الآخرون (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢، ص ١٢٦).

وعندئذ يكون بناء الفكر هو القاعدة والأساس التي تقوم عليه عملية بناء الذات وتطويرها، ومن ثم تعمل على تحقيق الوعي الاجتماعي لمسؤولياته تجاه أبناء مجتمعه، وفق أسس ومعايير منضبطة ومتزنة. ومن بين الأمثلة التي تناولها الطباطبائي في بيان أثر بناء الفكر على تطوير الذات على أساس الوعي الاجتماعي، تمكين الإنسان من إدراك السنن الاجتماعية، كما في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، فإنه يرى أن التغيير الاجتماعي يبدأ من بناء الفكر النفسي والأخلاقي للفرد، فإذا ما تغيرت وفق أصول الفكر السليم، تغير المجتمع (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١١، ص ٣٣١).

٦-٤. أثره على مستوى تنمية المهارات العاطفية

قلما يلتفت إلى هذا البعد بعض الباحثين، أعني البعد العاطفي، غير أنه كان له حضور بارز في كتابات وكلمات العلامة الطباطبائي، ولمدخليته كجزء جوهري في عملية تكامل الإنسان، لأن الإنسان في نظره لا يمثل عقلاً مجرداً عن العاطفة، ولا العكس، بل هو جوهر مركب منهما، إذ تمثل العاطفة لديه قوة فطرية مهمة في تربية ووجود الإنسان. فالإنسان من دون أن يحقق في المرتبة الأولى بناء فكره لا يمكن أن يكون مرشداً لعاطفته ومنمياً لمهاراتها، وإلا فإنها تتحول إلى حب غير واعي أعمى، فتتغير عنده سائر ما يتعلق بها من اشغالات نفسية وذاتية. وقد ذكر الطباطبائي مثلاً على تأثير بناء الفكر في تنمية المهارات العاطفية من خلال ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) (البقرة: ٤٥)، لما للصبر من أنه ملكة عقلية عاطفية تتشأ عن فكر واعٍ بمقام العبودية (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١، ص ١٥٢).

٥. أثر بناء الفكر على تطوير السلوك

١-٥. أثره على تطوير السلوك الفردي

لا يمكن أن ينطلق السلوك بشكل عشوائي دون أن يستند على قاعدة معينة، وهذه القاعدة هي ما يؤمن بها، والتي نعبر عنها بالفكر والعقيدة التي يؤمن بها. فالفكر بالنسبة لسلوك الإنسان هو القاعدة التي ينطلق عليها، فالأفعال الظاهرية ما هي إلا انعكاسات لما يخترنه العقل ويؤمن به.

١-٥. أثره على مستوى العلاقة بين الفكر والسلوك

يأتي هذا في بيان أثر بناء الفكر على تنمية العلاقة بينه وبين السلوك، لوجود علاقة وثيقة بينهما، فما من سلوك إلا وهو مستند على فكرة معينة. فعندما يكون الفكر سليماً يكون عندئذ السلوك المستند عليه سليماً وإيجابياً. ولذلك جاء

التأكيد على وسائل التعليم السليمة، ولأنه ما قيل: "التعلم منذ الصغر كالنقش على الحجر" (المجلسي، دت، ج١، ص ٢٢٤).

وقد روى الصدوق بإسناده عن الإمام علي (عليه السلام) في جملة ما قاله: "علموا صبيانكم ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليهم المرجئة برأيها" (الصدوق، ٢٠١٦، ص ٤١٦). ثم بين الإمام علي (ع) لولده الحسن (عليه السلام) العلة من الاهتمام بتعليم الأولاد في صغرهم، إذ قال: "إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبك" (المعتزلي، ١٩٦٥، ج ١٦، ص ٦٦).

٢-١-٥. أثره في معالجة السلوك الفردي السلبي

يحتاج الإنسان في معالجة سلوكياته السلبية إلى بناء فكري سليم، لأن الفكر السليم يسهم في عملية البناء والتنمية السلوكية الإيجابية، وكذلك يعالج السلوكيات المنحرفة لدى الفرد. ولهذا نجد في القرآن الكريم يخاطب بني إسرائيل من خلال تذكيرهم بما أنعم الله تعالى عليهم بعدما انحرفوا وكفروا بأنعمه، قال تعالى: (وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٣١). فالتذكير بالنعم هو أول خطوة لإعادة بناء الفكر وتصحيح السلوك بعد الكفر والانحراف (مكارم الشيرازي، ٢٠٢٣، ج ٢، ص ١٧).

٢-٥. أثره على تطوير السلوك الاجتماعي

المجتمع ما هو إلا مجموعة من الأفراد تجمعهم بعض الروابط الاجتماعية والدينية والجغرافية الخاصة، ومن هنا يأتي بيان أهمية أثر بناء الفكر في تنمية هذه السلوكيات الاجتماعية التي تشكل ظاهرة اجتماعية في مجالها، ومن ثم تأخذ دورها في بناء مجتمع متطور مزدهر بتلك القيم والمبادئ الأخلاقية والسلوكيات الإيجابية.

وقد قامت دولة النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على أسس ومبادئ اجتماعية وإنسانية تتسجم مع فطرة الإنسان وعقله السليمين، وأولى هذه المبادئ إلغاء الفوارق الطبقة والاجتماعية التي كانت سائدة وحاكمة على المجتمع، وذلك على أساس الإيمان بالتوحيد ومعرفة الله الواحد الأحد، لقوله تعالى: (إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ٥).

١-٢-٥. أثره في تنمية سلوك الإصلاح بين الأخوة

تعد عملية الإصلاح بين الأخوة حال حدوث نزاع واختلاف بينهم ضرورة اجتماعية ودينية، لقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات: ١٠). وقد ذكر الطباطبائي أن هذه الآية الكريمة تتضمن عدة مسائل منها الإصلاح الذي تتم الحياة الطيبة في ظله ويستقر النظام ويستتب الأمن والاستقرار في المجتمع (الطباطبائي، ١٤٢٧ هـ ج ١٨، ص ٣٠٥).

٢-٥. أثره في معالجة السلوكيات السلبية الاجتماعية

هناك سلوكيات سلبية اجتماعية أضحت تشكّل ظواهر اجتماعية على المستوى الأخلاقي، وهي من أسوأ آفات المجتمع التي تؤدي به إلى الانهيار والانهدم، لأن الخلق السليبي في حال تطوره إلى أن يصبح يمثل ظاهرة اجتماعية فإنه يعمل بشكل أو بآخر في هدم جميع القيم والمبادئ الأخلاقية الاجتماعية.

ومن هذه السلوكيات: المكر والخداع الاجتماعي، والربا والاحتكار، والرشوة، والخيانة، والكذب، والاستهزاء والسخرية، والحسد، ووَاد البنات. وقد جاءت النصوص القرآنية لتعالج هذه الظواهر من خلال بناء الفكر السليم الذي يدرك خطورتها وآثارها السلبية على الفرد والمجتمع.

ففي معالجة سلوك الربا والاحتكار، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩). وما ذلك إلا لأضراره الاجتماعية وآثاره السلبية على حاضر المجتمع ومستقبله، فالربا له مضار أكثر من منافعها التي يجلبها لصاحبه، لأنه يقضي على روح التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٢، ص ٤٠٩).

وفي معالجة سلوك الكذب، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر: ٢٨). فالمسرف في الكذب هو من يتجاوز حدوده وطوره (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ١٧، ص ٣٢٩). وفي معالجة سلوك الاستهزاء والسخرية، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ) (الحجرات: ١١). وقد حرم الله عز وجل في هذه الآية كل صور السخرية من الآخرين، فلا يلزم الإنسان لعل هذا الشخص الذي يسخر منه هو أعظم مكانة عند الله (مجموعة من المؤلفين، ١٤١٧هـ ص ٣٦٩٣).

٣-٥. أثره على السلوك السياسي

إن من مقومات العمل السياسي ونجاحه، اتصاف الحاكم بالعدل والإنصاف والأمانة والحكمة وسعة الصدر والرحمة بالرفقة. فقد جاء في وصية الإمام علي لمالك الأشر: "وأشعر قلبك الرحمة للرفقة والمحبة لهم والطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتتم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق" (الشريف الرضي، د.ت، الحكمة ٢٢٠).

وقد جاء التأكيد على تلك المقومات الأساسية للحاكم على لسان الإمام الحسين (عليه السلام)، إذ قال: "فلعمري ما الإمام إلا الحكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله" (ابن شهر آشوب، ١٣٧٦هـ ج ٣، ص ٢٤٣).

١-٣-٥. أثره في سلوك الحاكم عند حمل الأمانة وتاديتها

يمكن بيان هذا الأمر من خلال ما جاء في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (النساء: ٥٨). وقد ذكر الطباطبائي أن هذه

الآية ظاهرة الارتباط بما قبلها من الآيات، وتتطرق إلى تصرفات بعض أهل الكتاب، مبيّنة إخفاقاتهم وخياناتهم في الدين، مع التركيز على الأمر بأداء الأمانات إلى أصحابها، وهو مبدأ عام يؤكد ضرورة الحق والعدل في التعامل مع الآخرين (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٤، ص ٣٦٣).

٢-٣-٥. أثره في سلوك الحاكم في العدل والإحسان

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: ٩٠). وهذا السلوك المعتدل القائم على أساس سلوك الحاكم بالعدل والإحسان يعتمد على ما يتقوم به فكره، فإذا ما كان فكراً سليماً جنبه السلوك غير المعتدل إلى السلوك المعتدل كثمرة من ثمراته.

٣-٣-٥. أثره في معالجة السلوك السياسي الخاطي

لا يخلو أي من الأعمال الحياتية في مختلف أصعدها عن ظهور بعض السلوكيات الخاطئة، لكون الإنسان الذي تصدر عنه غير معصوم عن الخطأ. ولكن قد يكون للصعيد السياسي أوفر حظاً من هذه الأخطاء في السلوك، لأن طبيعة العمل السياسي معقدة ومتشعبة.

ومن هذه الأخطاء السياسية التي تخلق الأزمات وتؤدي إلى انهيار العملية السياسية برمتها: الخيانة السياسية، والظلم والاستبداد. وقد جاءت النصوص القرآنية لتحذر من هذه السلوكيات وتعالجها.

ففي معالجة خطر الخيانة السياسية، قال تعالى: (وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (الأفـال: ٥٨). فالخيانة في هذه الآية الكريمة بمعنى نقض العهد فيما يوتمن عليه، أي الخيانة بمعناها العام (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٩، ص ١١٣).

وفي معالجة ظاهرة الظلم والاستبداد، قال تعالى عن فرعون: (وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ بُنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة: ٤٩). وقد وصف الله تعالى ما فعله فرعون بآل موسى بأنه بلاء عظيم، وذلك لعظيم ما ابتلي به بنو إسرائيل على يد آل فرعون من القتل والتعذيب والتكيد والإذلال (مكارم الشيرازي، ٢٠٢٣، ج ١، ص ٢٢٠).

٤-٥. أثره على السلوك العلمي

يُعد بناء الفكر عاملاً مهماً في عملية تنمية السلوك التربوي وتطوير الأفكار العلمية، وهو مما يسهم في تطوير العملية التربوية والعلمية من خلال تفاعلها مع التطورات العالمية في مختلف المجالات العلمية والحياتية.

١-٤-٥. أثره في عملية تنمية المهارات والقدرات الذهنية

يحتاج الفرد لأجل ذلك إلى إجراء بعض التدريبات الخاصة بحيث تصبح لديه قدرة كافية للتعلم على كيفية تحليل البيانات العلمية بشكل منهجي وموضوعي. وقد أشارت النصوص القرآنية إلى تأكيدها على تنمية القدرات العقلية والمهارات الفنية من خلال التدبر والتفكير فيها.

ففي قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ١٩٠) دلالة واضحة على أهمية التفكير والحث على التأمل في خلق الله تعالى من خلال استخدام العقل والفكر في فهم العالم الخارجي (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٤، ص ٨٧).

وفي قوله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١) دلالة على أهمية العلم وأثره في الحياة، وهذه الآية جعلت من أهل العلم على درجات متفاوتة تبعاً لثقوتهم في مراتبهم العلمية (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٤، ص ٣٧٦).

٢-٤-٥. أثره في تنمية عملية الجهد والاجتهاد

إن عملية الجهد والاجتهاد تعتمد في الدرجة الأولى على الفكر السليم، ومن هنا كان لبناء الفكر دور كبير في تحقيقها، لأنه هو الذي يسهم في تحقيق النجاح والتقدم والتطور باعتباره المحرك الأساس لبذل الجهود إزاء أي عمل يحتاج إليه الإنسان في حياته

وقد قال تعالى: (قُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: ١٠٥). وقد ذكر الطباطبائي أن هذه الرسالة تتناول الأشخاص العاملين بالخير، وتشجعهم على القيام بالإتفاق في سبيل الله، غير أن التعبير الوارد فيها عام ولا يقتصر على فئة معينة من المؤمنين، بل يشمل كل من يقوم بأعمال نافعة (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٩، ص ٣٧٨).

3-٤-٥. أثره في معالجة السلوك التربوي والتعليمي السلبي

لا شك أن لبناء الفكر وتطوير الذات أهمية وأثر في معالجة السلوكيات التعليمية الخاطئة على مستوى الأفراد والمناهج العلمية وطرق التدريس وأساليبه. وقد دلت النصوص القرآنية على معالجة السلوك الخاطئ في العملية التربوية والتعليمية.

ففي قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) (التوبة: ١٦) إشارة واضحة إلى أهمية الجهد وبذل الجهد في تصحيح السلوك الخاطئ وتحسينه، من خلال معالجة الأخطاء (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٥، ص ٣٥٢).

وفي قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان: ٦٣) جاءت بصد تحقيق هدف تربوي وتعليمي في إشارة منها إلى كيفية التعامل مع الجاهلين من خلال التصرف معهم بحكمة، كجزء من تصحيح أخطائهم السلوكية بأسلوب علمي وتربوي ناجح (الطباطبائي، ١٤٢٧هـ ج ٦، ص ٢٩٧).

٦. النتائج والتوصيات

٦-١. النتائج

أظهرت الدراسة أنّ بناء فكر الإنسان يشكّل الأساس الضروري لتطوير الذات واستقامة السلوك، فهو العملية التي يُهيأ بها الإنسان لإدراك الحقائق، وتمكينه من التمييز بين الحق والباطل، والقدرة على التعامل مع المؤثرات الداخلية والخارجية بوعي ومسؤولية.

أولاً: فيما يتعلق بطبيعة بناء الفكر وأثره على تطوير الذات والسلوك: أظهرت النتائج أنّ عملية البناء الفكري تتضمن نموذجاً هرمياً ثلاثياً: المرحلة الأولى هي التهيئة الفطرية التي تشمل الفطرة المودعة في النفس منذ الولادة، والعقل كأداة للتمييز، والقلب بوصفه موضع القيم والمشاعر الفطرية. المرحلة الثانية هي الإمداد الوجداني الذي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو الذي يمنح الفكر النور والهداية ويضعه على صراط الاستقامة. المرحلة الثالثة هي التفعيل العملي، ويشمل التفكير في الآيات الكونية، والتدبر في التشريعات، والتزكية الأخلاقية المستمرة، بما يحقق تكاملاً بين المعرفة والسلوك والذات.

ثانياً: فيما يتعلق بعوامل بناء الفكر: بينت الدراسة أنّ هناك تفاعلاً بين عوامل داخلية تشمل الفطرة، والعقل، والقلب، والصحة النفسية، والمعرفة الذاتية، وتقوية الإرادة، وعوامل خارجية تشمل البيئة الاجتماعية، والأسرة، والثقافة، والتربية، والتعليم، والتجارب الإنسانية السابقة. وقد أثبتت الدراسة أنّ الفطرة تعمل كدافع أولي نحو الكمال والحق، والعقل كأداة إدراك، والقلب كمخزن للقيم الأخلاقية. أما الصحة النفسية فهي ركيزة لاستقرار الفكر، والمعرفة الذاتية وسيلة لفهم علاقة الإنسان بخالقه وبعالمه، وتقوية الإرادة توفر الوقود الضروري للاستمرار في مواجهة التحديات.

ثالثاً: فيما يتعلق بأثر بناء الفكر على تطوير الذات: أظهرت النتائج أنّ الفكر المتكامل يمكن الإنسان من رفع مستوى المعرفة، وتعزيز القدرة العقلية، وتنمية البعد النفسي من خلال حب الجمال والمثابرة والإرادة، وتنمية البعد الروحي والإيماني كأساس للتكامل الأخلاقي. وقد بينت الدراسة أنّ التدبر في النفس والآفاق والتأمل في الكون يعدّ المدخل الأكثر فعالية للارتقاء بالفكر وتحويل المعرفة إلى تجربة حياتية عملية، كما أكدت أنّ الأخلاق لا يمكن غرسها إلا بعد بناء الفكر أولاً.

رابعاً: فيما يتعلق بأثر بناء الفكر على استقامة السلوك: أثبتت الدراسة أنّ الفكر هو المرجع الأساسي للسلوك، وأنّ بناء الفكر على منهج الميزان يضمن قدرة الإنسان على تمييز السلوك الإيجابي من السلبي، وتوجيه أفعاله نحو الاعتدال والمسؤولية، ومعالجة الانحرافات الفردية والاجتماعية. وقد تمّ تحديد ثماني ظواهر سلوكية مدمرة (المكر، الربا، الرشوة، الخيانة، الكذب، السخرية، الحسد، الواد) وأثبت البحث أنّ بناء الفكر بالمنهج القرآني يمكنه معالجتها جذرياً.

خامساً: توصلت الدراسة إلى أنّ بناء الفكر ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة استراتيجية لتطوير الذات والسلوك، ووسيلة لتمكين الإنسان من أداء رسالته في الأرض وتحقيق الكمال العلمي والعملية والسعادة الأبدية، مع حماية الفرد

والمجتمع من الانحراف الفكري والأخلاقي. وقد أثبتت النتائج أن تطبيق منهج الميزان في التربية، وفي برامج التسمية الفكرية والاجتماعية، يمثل الحل الأمثل لتحقيق الاستقامة المعرفية والقيمية والسلوكية.

٢-٦. التوصيات والمقترحات

التوصيات:

١. تعزيز القراءة الواعية لمصادر الفكر الإسلامي.
٢. الاهتمام بالمنهج النقدي والتحليلي عند مواجهة الأفكار مع تجنب التقليد السلبي أو العاطفي لها.
٣. الاهتمام بالبعد العقلي القائم على أساس التفكير والتعقل والتأمل والتدبر في معالجة القضايا الفكرية.
٤. ملاحظة الربط بين السلوك والمعتقدات الفكرية للارتباط الوثيق بينهما، مع توظيف الفكر في بيان هذه العلاقة ومدى تأثير بعضهما البعض الآخر.

المقترحات:

١. إنشاء مراكز بحثية ومؤسسات فكرية تهتم بتربية الأجيال والطاقت الشبانية فكراً وسلوكياً، لأنهم عماد المجتمع وحاضر ومستقبل الأمة.
٢. توظيف الخطاب الفكري في خدمة المجتمع من خلال عقد الندوات والحوارات الثقافية والفكرية.
٣. محاربة السلوكيات السلبية في المجتمع والثقافات المنحرفة، من خلال الوعي الفكري السليم وتجنب التعصب والتقليد الأعمى المؤديان لهدم بناء الفكر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أ. الكتب والموسوعات

- ابن بابويه، علي بن الحسين (١٤٠٦هـ). الفقه المنسوب للإمام الرضا (ع). قم: مؤسسة آل البيت (ع).
- ابن سينا، أبو علي حسين (١٤١٧هـ). النفس من الشفاء. قم: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.
- ابن سينا، أبو علي حسين (١٤١٧هـ). إلهيات الشفاء. قم: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.
- ابن شهر آشوب (١٣٧٦هـ). مناقب آل أبي طالب. النجف: المكتبة الحيدرية.
- ابن فارس، أحمد (١٤١١هـ). معجم مقاييس اللغة. بيروت: دار الجيل.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤٠٥هـ). لسان العرب. بيروت: نشر أدب الحوزة.
- ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن علي (١٤٠٣هـ). عوالي اللئالي. قم: المطبعة سيد الشهداء.
- ابن فهد الحلبي (١٤٠٧هـ). عدة الداعي. بيروت: دار الكتاب العربي.

- الأشموني، علي بن محمد (١٤١٩هـ). شرح الأشموني على الألفية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين (د.ت). تفسير الألوسي (روح المعاني). بيروت: دار الحق.
- أنيس، إبراهيم وآخرون. (1972) المعجم الوسيط. القاهرة: مجمع اللغة العربية.
- الأوسي، علي (١٤١٧هـ). الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان. بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- البخاري، أبو عبدالله (١٤٢٢هـ). صحيح البخاري. بيروت: دار طوق النجاة.
- البغدادى، أحمد بن حنبل (١٤١٨هـ). مسند أحمد. بيروت: دار صادر.
- البهقي، أحمد بن الحسين (١٤٢٤هـ). السنن الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجديع العنزي، عبدالله. (2004) المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف. بيروت: مؤسسة الريان.
- الجوادي الآملي، عبدالله (١٤٤٠هـ). العلامة الطباطبائي السيرة الفلسفية. بيروت (ضمن رسالة التشيع).
- الحر العاملي، محمد بن الحسن (١٤١٤هـ). وسائل الشيعة. قم: مؤسسة آل البيت.
- حسن زاده آملی، حسن (١٤١٢هـ). في سماء المعرفة. قم: مؤسسة اسراء.
- حسيني طهراني، سيد محمد حسين (د.ت). مهر تابان. قم: انتشارات باقر العلوم.
- الراغب الأصفهاني. (1992) مفردات ألفاظ القرآن. بيروت: دار العلم.
- رضا، رشيد (١٣٦٦هـ). تفسير المنار. بيروت: دار المنار.
- الريشهري، محمد (١٤١٥هـ). ميزان الحكمة. قم: دار الحديث.
- الزبيدي، محمد مرتضى (١٣٨٥هـ). تاج العروس. الكويت: وزارة الإرشاد.
- السبحاني، جعفر (١٤٢٠هـ). المحاضرات في الإلهيات. قم: مؤسسة الإمام الصادق (ع).
- السجستاني، أبو داود (١٤٣٠هـ). سنن أبي داود. بيروت: دار الرسالة العالمية.
- السيد قطب (١٤١٢هـ). في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق.
- السيوطي (١٤٠١هـ). الجامع الصغير. بيروت: دار الفكر.
- الشریف الرضي (د.ت). نهج البلاغة. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الشعراوي، محمد متولي (١٩٩٧م). خواطر القرآن الكريم. القاهرة: أخبار اليوم.
- الشوكانى، محمد بن علي (١٩٧٣م). نيل الأوطار. بيروت: دار الجيل.
- الصدوق، محمد بن علي (٢٠١٦م). الخصال. قم: مكتبة الصدوق.
- الطباطبائي، محمد حسين (١٤١٧هـ). نهاية الحكمة. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
- الطباطبائي، محمد حسين (١٤١٨هـ). بداية الحكمة. قم: عباس علي الزارعي.
- الطباطبائي، محمد حسين (١٤٢٧هـ). الميزان في تفسير القرآن (٢٠ مجلدًا). قم: جماعة المدرسين.

- الطباطبائي، محمد حسين (١٤٣٢هـ). أصول الفلسفة والمنهج الواقعي. بيروت: دار جواد الأئمة.
- الطبرسي، أبو علي الفضل (١٣٧٩هـ). مجمع البيان في تفسير القرآن. قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي.
- الطبري، أبو جعفر (١٩٠٣م). تفسير الطبري. بيروت: دار الحق.
- الطوسي، أبو جعفر (١٢٠٩هـ). التبيان في تفسير القرآن. قم: مكتب الإعلام الإسلامي.
- العسكري، أبو هلال (١٤١٢هـ). الفروق اللغوية. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
- عليان، رشدي (٢٠٠٨م). دليل العقل عند الشيعة الإمامية. بيروت: مركز الحضارة.
- الغزالي، أبو حامد. (1996) إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
- الفيروزآبادي، مجد الدين (١٤٣٠هـ). القاموس المحيط. بيروت: دار الفكر.
- الفيض الكاشاني، محسن (١٤١٦هـ). تفسير الصافي. قم: منشورات الهادي.
- القاضي النعمان المغربي (١٩٩٥م). دعائم الإسلام. بيروت: دار الأضواء.
- القرشي، باقر شريف (١٣٧٢ش). حياة الإمام الرضا (ع). قم: انتشارات سعيد بن جبير.
- قلعجي، عبد المعطي. (1988) معجم لغة الفقهاء. بيروت: دار النفائس.
- الكراجكي، أبو الفتح (١٣٦٩هـ). كنز الفوائد. قم: مكتبة مصطفى.
- الكليني، محمد بن يعقوب (١٣٦٣ش). الكافي. طهران: دار الكتب الإسلامية.
- الليثي الواسطي (١٤١٧هـ). عيون الحكم والمواعظ. قم: دار الحديث.
- المازندراني، محمد صالح (١٤٤٨هـ). شرح أصول الكافي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- المجلسي، محمد باقر (د.ت). بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.
- المحقق البحراني، يوسف (١٤٢٠هـ). الحدائق الناضرة. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
- المظفر، محمد رضا (١٤٢٨هـ). المنطق. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
- المعتزلي، ابن أبي الحديد. (1965) شرح نهج البلاغة. قم: مركز بحوث دار الحديث.
- مكارم الشيرازي، ناصر (٢٠٢٣م). الأمل في تفسير كتاب الله المنزل. قم: مدرسة أمير المؤمنين (ع).
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج (١٣٧٤هـ). صحيح مسلم. القاهرة: مطبعة عيسى البابي.
- الواسطي، علي بن محمد (١٤١٨هـ). عيون الحكم والمواعظ. قم: دار الحديث.

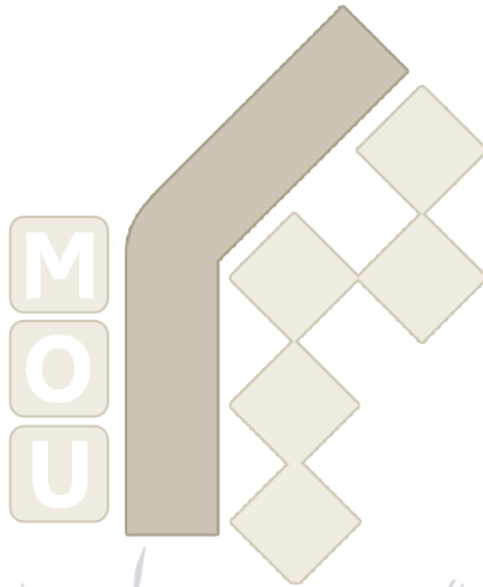
ب. المجالات والبحوث

باشاي، محمد (١٩٩١). "ثقافة التلاحق مع أهل التفكير المستنير". مجلة السياسة الدولية، ٦(3)، ص ٣٠.

ج. المواقع الإلكترونية

موقع المعارف الإسلامية: "الطباطبائي وموقفه من التفسير بالرأي". (تاريخ الزيارة: ٢٠٢٢/٦/٣).

- موقع "الموضوع": "مفهوم الرشوة وأسبابها". (تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/١/٦).
- موقع "الصالح": "مفهوم الثقافة والمتقف من منظور قرآني". (تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/١/٦).
- موقع "إسلام أون لاين": "رحلة علمية مع التفاسير المعاصرة". (تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٥/٢).



دانشگاه مجازی المصطفی